جامع الخلفاء

La Mosquée des Khalifes.

بعد ان قدمت الى مدير هذه المجلة الغراء مقالتي « منارة سوق الغزل » التي ادرجها في الجزء الاول من هذه السنة . طبع الكاتب البارع بهجة الاثري كتاب «تاريخ مساجد بغداد وآثارها» .ودعتني تلك المقالة الى ان انعم النظر في البحث الخاص بجامع الخلفاء ، آملا ان اجد فيه ما تزين به تلك الصحائف من الآراء المنمقة . فوجدته يقول في المتن والحاشية (ص ٣٩) عن هذا الجامع ان بانيه هو الامام محمد المهدي في سنة ١٥٩ هـ [٧٧٥ م] . ولم اتذكر وجود هذا القول في النسخة الخطية المحفوظة في خزانة الآباء الكرمليين ، التي كنت طالعتها ابان كتابتي المقالة، ولكنني لم اعتمد بذاكرتي ، فرجعت الى النسخة الخطية لتحقيق الغاية . وهذا ما فيها (ص ٧٢) عن قدم الجامع : « كان هذا هو المسجد الجامع ايام الخلافة العباسية ... فكان مصلى خليفة المسلمين من آل عباس . » اه . ولم يزدنا المخطوط في تعريف زمن بناء الجامع .

واذ ذكرت هذه النسخة المخطوطة ، وقد نظر فيها المرحوم الشيخ محمود شكري الالوسي ، كما سيجيء ، فلا استغني عن نقل ما ورد فيها عن «شخصية» ناسخها وغير ذلك لعلاقته بالبحث .

وهذا ما فيها في ص ١٥٥ : « تكملة المساجد الثمانية في الجانب الغربي . وقفت على القسم الثالث من اخبار بغداد، وما جاورها من البلاد ، للعلامة الاستاذ السيد محمود شكري افندي الشهير بالالوسي دامت معاليه. وهذا القسم التاريخي يحتوي على ذكر الجوامع والمدارس في بغداد .ولما كان الجانب الغربي يحتوي على كثير من المساجد التي لم يرد ذكرها فيه احببت ان الحقها فيه (كذا) خدمة للتاريخ. والله الموفق المعين » اه .

وفي آخر الكتاب [ص ١٧١] ما يلي : « هذا ما وصلت اليه يدي من تكملة المساجد في الجانب الغربي مع ضيق الوقت ... وانا الفقير اليه تعالى

محمد خلوصي ابن السيد محمد سعيد التكريتي الناصري ، تحريرا في اليوم الحادي عشر من شهر شعبان المعظم سنة ست وثلاثين وثلثمائة والف هجرية . ه ا ه .

قلت ان الشيخ الالوسي نظر في هذه النسخة والذي يؤكد لنا ذلك ما نقرأه في ورقة بخطه ملصوقة بالصفحة ٣٣ من المخطوط فيها قصيدة لعز الدين ابي حامد عبدالحميد بن ابي الحديد ، وهي التي طبعت في مجلة اليقين (١ [١٣٤١ ه ١٩٢٢ م] : ٤٢٣) في جملة المستنصريات ، ثم في المستنصريات المطبوعة على حدة (ص ١١) وجاء منها بيتان في اليقين ايضا (٣ [١٣٤٤ ه ١٩٢٥ م] : ٤٨٩) ووردت في كتاب المساجد المطبوع (ص ٩١) ومطلعها :

أبيت فلا اقيم على الصغار وبالمستنصر الملك انتصاري (١)

وفي ذيل الورقة ما قوله : تابع صحيفة ٣١ من كتاب المساجد بعد قوله : في الشرع والمطلوب كالمعتبر (٢) ثم تثبت هذه القصيدة ، ثم يأتي بعدها : وتلخيص شروط هذه المدرسة [يريد بها المستنصرية] اه . وكل ما في هذه الورقة بخط الالوسي .

وبعد هذا الايضاح عن النسخة المخطوطة لا اخال ان القول عن جامع الخلفاء انه جامع الرصافة من زيادة المؤلف بعد نظره في تلك النسخة . وقد يكون ظني في غير محله .

ولما كانت النسخة المطبوعة لكتاب المساجد تعتبر جامع الخلفاء انه جامع الرصافة احببت ان اعود الى طرق هذا الموضوع نفعا للتاريخ ولعلمي ان الحقيقة بنت البحث وان الاثري من الذين ينشدونها واني لاستأذنه في ذلك :

قال الاثري في مقدمته على المطبوع (ص ١٥) نقلا عن الخطيب البغدادي : « ان اول جمعة احدثت في الاسلام في بلد مع قيام « الجمعة القديمة » في ايام

(١) ناظمها عز الدين هو شارح نهج البلاغة .

(٢) جاءت في المطبوع ايضا منسوبة الى شارح نهج البلاغة وفي الحوادث الجامعة انها لابي المعالي القسم بن ابي الحديد وكان قد نشرها عن هذا المخطوط للمجهول الاسم والمؤلف اذ ذاك جرجس صفا في المشرق (٥ [١٩٠٢] : ١٦٥) وقال غلطا في الحاشية ان ابا المعالي القسم هو شارح نهج البلاغة (وراجع عنها هذه المجلة ٥ [١٩٢٧] : ٢٢٢ و ٣٤٣ ح) وما يزيدنا ثقة بصحة نسبتها الى ابي المعالي القسم انها لم ترد في المستنصريات .

المعتضد في دار الخلافة من غير بناء مسجد لاقامة الجمعة . قال : وسبب ذلك خشية الخلفاء على انفسهم في المسجد العام . وذلك سنة ٢٨٠ هـ [٨٩٣ م] ثم بني في ايام المكتفي مسجد فجمعوا فيه . » اهـ

وقد علق الاثري (ص ٣٩) حاشية على بحث جامع الخلفاء أوردفيه ملخص كلام معجم البلدان عن الرصافة وجامعها فقال :

« ذكر ياقوت الحموي المتوفى في سنة ٦٢٦ ان المهدي بنى في الرصافة جامعا اكبر من جامع المنصور واحسن وان فراغه من بناء الرصافة والجامع بها كان سنة ١٥٩ هـ اي في السنة الثانية من خلافته وانه وجد تلك النواحي في عصره خربة وانه لم يبق منها يومئذ إلا الجامع وبلصقه مقابر خلفاء بني العباس وقال : وعليها وقوف وفراشون ولولا ذلك لخربت . » اهـ . فكانه اراد بذلك ان يؤيد ما جاء في الكتاب نفسه من ان جامع الخلفاء هو جامع الرصافة . ولو لم تكن لدينا تلك الشواهد التي اوردتها في مقالة منارة سوق الغزل عن ان جامع الخلفاء هو غير جامع الرصافة لكفانا قوله نقلا عن الخطيب انه كانت « جمعة قديمة » وجمعة احدثت في ايام المعتضد في دار الخلافة ثم بني مسجد في ايام المكتفي فجمعوا فيه».

ويحسن بنا ايضا ان نرجع الى كتاب مناقب بغداد الذي طبعه الاثري (ص ٢١ و ٢٣ و ٣٣) فاذا راجعناه لا يسعنا ان نسمي جامع الخلفاء بجامع الرصافة بل نقول بدون تردد انه جامع القصر .

والظاهر ان الاثري ائتمن جريدة العرب . او مجلة مرآة العراق (١) التي نقلت عنها . على ما نقلته عن معجم البلدان ولم يظن ان هناك بترا وعدم تروٍ ادى الى قولها ان جامع الخلفاء هو جامع الرصافة . ولولا اعتقاده بامانة النقل لاتى ببقية كلام المعجم عن الرصافة وجامعها حيث يقول : وبلصقها « بلصق مقابر خلفاء بني العباس » محلة ابي حنيفة الامام وبها قبره » ولانتهى بالبت بان جامع الخلفاء هو غير جامع الرصافة .

واذا عارضني احد في اسناد النقل عن احد المأخذين المذكورين : العرب

(١) راجع هذه المجلة (٦: [١٩٢٨] : ٤٠) تر رقيمهما وتاريخهما .

والمرآة بانه قول مجرد عن سند فان لي دليلا على ذلك هو اتفاق كلام حاشية ص ٣٩ من كتاب المساجد المطبوع مع كلام المنقول عنه إلا التحرير . وهنا اقتطف كلام الجريدة والمجلة وكلام الكتاب للمقارنة بينهما :

كلام العرب والمرآة	كلام الكتاب
وقال بعض المؤرخين انه ادرك من باب هذا المسجد ميلين شامخين في الهواء كانا على جانبي باب الجامع وان سليمان باشا الكبير والي بغداد سنة ١١٩٣ هدمهما وبنى بانقاضهما مسجدا صغيرا بقرب المنارة وهو المشتهر اليوم بجامع الخلفاء وكان الباب الذي على جنبيه الميلان السوق التي يباع فيها اليوم الغنم وغير ذلك.	وذكر بعضهم انه ادرك من هذا المسجد الجامع ميلين شامخين في الهواء كانا على جانبي بابه وان سليمان باشا والي بغداد سنة ١١٩٣ هـ هدمهما وبنى بانقاضهما مسجدا صغيرا بقرب المنارة « وهو المسجد الموجود اليوم » وان الباب الذي عليه الميلان كان عند السوق التي يباع فيها اليوم الغنم وغيره.

وجاء في الجريدة والمجلة المذكورتين ما قوله :

« ... فانهم [يريد بهم البريطانيين] لما رأوا ما عراها [عرا المنارة] ... ارسلوا لها عارفين ... فكشفوا عليها ... ثم باشروا في اصلاح خللها ... وقد جددوا كرسيها على الاساس الاول واخذوا يصلحون البدن كله ...» وقال الاثري عن ذلك : « وقد اعتنى البريطانيون بعد احتلال بغداد بالمنارة الباقية من الجامع وجددوا كرسيها على الاساس الاول ولم يكملوها » وكان الزمن قد اكل بعض آجر الكرسي فضعف وهذا الذي اعادوه الى ما كان . ولقد احسن الاثري بقوله : « لم يكملوها » اذ انهم لم يصلحوا غير الكرسي وعسى ان يقوم احد بقراءة بقية كتابتها ولعله يفلح بادراك منها شيئا .

وصفوة القول ان جامع الخلفاء كان يسمى جامع القصر ثم سمي جامع الخليفة ايضا وقد فشا عنه قول انه جامع الرصافة في كتاب المساجد المطبوع لغلط المصدر الذي اخذ عنه . والعصمة لله وحده .

بغداد يعقوب نعوم سركيس